

افتتاحية العدد

افتتاحية العدد

في افتتاحية هذا العدد، تواصل المجلة سياستها في مناقشة أساسيات البحث التربوي والملاحظات المتكررة في الأبحاث العربية سواءً التي تصلها بغرض النشر، أو تلك المنشورة في الأوعية المختلفة. ومن الملاحظات الأساسية التي تتكرر في تعليقات المحكّمين في أثناء تقييمهم لمخطوطات الأبحاث، عبارات تركّز على الإطار النظري بشكل خاص، من مثل: "الخلفية النظرية للبحث غير كافية، البحث يفترق إلى إطار نظري أعمق، الإطار النظري ضيق للغاية وقصير النظر، أو واسع بشكل مفرط، أو غير متصل بالأجزاء الأخرى من الدراسة،..."، وغيرها من العبارات التي تعكس ملاحظات جوهرية تتطلب مراجعات كبيرة إذا أريد معالجتها بشكل فعّال. لذلك، رأينا أن نركز افتتاحية هذا العدد على الدور الذي يؤديه الإطار النظري (Theoretical Framework) في البحث، باعتباره دليلاً موجّهاً لخطة الدراسة، وأداة قوية تربط جميع أجزاء البحث معاً في كلِّ متماسك.

بداية، نود أن نشير إلى أنّه على الرغم من وجود من يدعو إلى التمييز بين الإطار النظري والإطار المفاهيمي، وفي المقابل من يستخدم هذه المصطلحات بالتبادل في كتاباته؛ فإننا في هذه الافتتاحية، نستخدم مصطلح الإطار النظري بمفهومه الواسع الذي يشمل: مجموعة المفاهيم والمهارات والتعميمات والحقائق والنظريات والعلاقات بينها التي توجّه الباحث في التفكير في الظاهرة قيد الدراسة.

كثبت أدبيات مناهج البحث الكثير عن الإطار النظري، ودعت إلى زيادة العناية به، واستخدمت بعضها استعارات متعددة لوصفه وتوضيح مفهومه، فمنها ما تصفه "بخزانة الملابس" التي توفر أماكن لتعليق "بيانات البحث"، مما يوضح علاقتها بالبيانات الأخرى، وتحذر من أن الإطار النظري القاصر سينظّم بعض البيانات، بينما سيترك بيانات أخرى مكونة على الأرض، لا مكان لتعليقها. وتصفه أدبيات أخرى "بالسقالة" استعارةً من أعمال البناء، فكما يحتاج البناء لدعائم يستند إليها حتى ينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى منه كلما ارتفع، فكذلك البحث يحتاج إلى إطار نظري يسند له لينتقل في مراحلهِ وإجراءاتهِ.

تلك الاستعارات وغيرها تؤكد خطأ عدد من الاعتقادات الشائعة حول الإطار النظري، بأنّه مجرد ملخص مباشر للدراسات ذات الصلة، أو يكفي استخدام التعريفات التي تظهر في الأدبيات لتوفير أساس نظري. إذ تُصوّر تلك الاستعارات الإطار النظري على أنه شيء مبني بشكل هادف من مكونات متعددة، لا يتم اختيارها

بسهولة من خلال البحث في الأدبيات، ولا يمكن أن يكون الإطار عامًا لا يوفر سوى القليل من الإرشادات لإجراء الدراسة أو كتابة التقرير.

وحتى يكون الإطار النظري مفيدًا، يجب أن يبينه الباحث كجزء أساسي من تصوره للبحث وإجراءات تنفيذه. وأن يفعل أكثر من مجرد تجميع الأجزاء الموجودة في الأدبيات، وأن يشرح كيفية الاستفادة منها ودمجها لبناء إطار مناسب لدراسته الحالية. وتشير أدبيات مناهج البحث في هذا السياق إلى عدد من التنبهات والملاحظات المهمة التي يمكن أن تساعد الباحث في تنظيمه لإطاره النظري، من مثل:

- السبر والتقسيم، بالاعتماد على الأساس المنطقي في تصنيفه لموضوعات إطاره والأدب السابق.
- الترابط ووحدة الفكرة، ليظهر إطاره النظري متماسكًا، خاليًا من التعارض والتناقضات (يُصدّق بعضه بعضًا).

- مناقشة المهتمين واكتشاف الأنماط، فيكتب الباحث إطاره بطريقة تكون فيها المعلومات مرتبةً بطريقة تشبه مناقشة صديق يهتم بموضوع الدراسة، من خلال اكتشاف الأنماط الدورانية التي تتكرر في الأدب السابق الذي يقوم بقراءته (تكرار عبارات، نتائج، استنتاجات، إجراءات ... الخ) من أجل أن يعتمد عليها في طريقة تفكيره في أثناء الكتابة.

- رحلة المستكشف، من خلال مقاومة الباحث لإغراء تقديم الأدبيات كسلسلة من الملخصات، والعمل على تقديمها بطريقة تسوّغ قيامه بدراسته، وذلك بإبراز ما قد عُلم، وما هو باقٍ للبحث في الموضوع ذي الاهتمام. مثله في ذلك مثلُ المستكشف الذي يقوم برحلة استكشافية، يضع خطة تبدأ من المنطقة المعروفة، وتشير إلى طريق الوصول للمنطقة المجهولة التي يود استكشافها.

وكما أكّدت أدبيات مناهج البحث قيمة هذا الجزء من مكونات البحث، وأهمية العناية به، وتنظيمه، حدّرت في الوقت نفسه من عدد من الممارسات الخاطئة فيه، من مثل:

- أين الباحث؟ لمن اقتصر فيه على دور المقتبس فقط، دون أن يتجاوزه إلى التحليل والنقد والتوظيف، فالأكثر أهمية مما يقوله الأدب السابق، ما يقوله الباحث عنه.

- والخلفية الناقصة، لمن يغفل الحديث عن أحد متغيرات بحثه المهمة، أو لا يتطرق للعلاقة بين متغيراته كما حدّتها المشكلة.

- والأسلوب القصصي، لمن يعتمد على النمط السردى في عرض الأدب السابق.

- والمصادر الضعيفة، لمن يعتمد على المصادر الثانوية في بناء إطار دراسته.

إضافة إلى ما سبق، تؤكد عدد من الأدبيات أن الإطار النظري يمكن أن يمثل "هيكلًا للتبرير"، وذلك من خلال تبرير إجابات سلسلة الأسئلة التي يطرحها الباحث على نفسه في أثناء تصوره للبحث وإجراءاته، من مثل: لماذا يعد هذا الموضوع مهمًا للدراسة؟ ماذا أتوقع أن أجد؟ كيف يمكن أن تكون إجابات أسئلتى البحثية؟ لماذا أتوقع هذه النتائج؟ لماذا هذه أسباب صحيحة لتلك النتائج؟ وغيرها من الأسئلة التي تُنتج فرضيات مرتبطة بالأبحاث السابقة، وتشكل روابط بين ما هو جديد، وما هو معروف سلفًا في الأدب السابق. وهذه الطريقة، يمكن للإطار النظري أن يوجه اختيار أسئلة البحث، وطرقه، ومجموعات البيانات التي يتم معالجتها، ويدعم التفسيرات المقنعة للنتائج التي يمكن أن تدفع المجال المعرفي إلى الأمام. وعلى وجه الخصوص ينبغي أن يدعم الإطار النظري ثلاثة أنواع من المبررات في تقرير البحث، وهي:

(1) السبب (تبرير الغرض من الدراسة وتحديد نطاق مراجعة الأدب).

(2) الكيفية (تبرير تصميم الدراسة ومنهجها).

(3) ماذا وماذا في ذلك؟ (تبرير عرض النتائج ومناقشتها).

وعناصر التبرير هذه متماسكة ومرتبطة ببعضها البعض في سلسلة منطقية تتخلل تقرير البحث وتجمعه معًا وتجعله كتلة واحدة. والجزء المفقود منها أو المعطل يمنع تماسك البحث، ويظهره بشكل غير متسق، مما يجعل الأساليب تبدو منفصلة عن الأسئلة أو النتائج ومناقشتها. وفيما يلي شرح موجز لهذه الأنواع من المبررات.

فأما ما يتعلق بدعم الإطار النظري لتبرير الغرض من الدراسة، فتعتمد فكرة البحث عادة على سلسلة مبررات مُصاغة من إطار نظري قائم على المعرفة التخصصية في المجال المستهدف، حيث يجب أن يكون واضحًا كيف تعمل الإجابة عن أسئلة البحث على توسيع تلك المعرفة، لأنها تستند إلى فرضيات نابعة من مراجعة الأدب السابق. وعندما لا يقدم البحث إطارًا نظريًا واضحًا يربط الدراسة بذلك الأدب، فإنه يتولد شعور لدى المحكمين والقراء (على حدٍّ سواء) بأن الدراسة موجودة في فراغ. لذا، عند إعداد تقرير البحث، ينبغي على الباحث بناء إطاره النظري بشكل جيد، حيث يقوم ببناء وصقل الإطار النظري لفهم وتحليل الظاهرة محل الدراسة بشكل أفضل، من

خلال تصنيف فكرته البحثية في المجال الأوسع، وتوضيح كيف تتشابه أسئلته البحثية وتختلف مع الأسئلة ذات الصلة التي درسها باحثون آخرون بالفعل.

كما ينبغي على الباحث أيضًا في أثناء بناء إطاره النظري، تحديد نطاق مراجعة الأدب السابق، أي تحديد ما يجب قراءته والاطلاع عليه في الأدب السابق مما يعني أن نطاق مراجعة الأدبيات يحدده الإطار النظري الذي تم بناؤه في الدراسة، نظرًا لأن ذلك الإطار يوفر مجموعة من الأسباب التي تبرر القرارات التي اتخذها الباحث في إجراءات دراسته، فالأدب السابق فقط الذي أحدث فرقًا في تلك القرارات هو الذي يجب إدراجه في مراجعة الأدبيات.

وعندما يثير المحكم قلقه من أن الباحث فشل في مراجعة دراسة أصيلة ذات صلة، أو يقترح على الباحث أدبيات إضافية لمراجعتها، فقد يعني ذلك أن الدراسة لم يتم وضعها بشكل صحيح فيما يتعلق بما هو معروف بالفعل، وأنه لو تم أخذ الأدبيات المحذوفة بعين الاعتبار، لكان الباحث قد اتخذ قرارات مختلفة، أو ربما كان سيجري الدراسة أو يفسر النتائج بشكل مختلف. كل هذه التعليقات ونحوها تشير إلى أنه لا يزال يتعين على الباحث التفكير بعناية في ماهية الأدب السابق المناسب حقًا.

ومن المبررات التي يدعمها الإطار النظري أيضًا، تبرير تصميم الدراسة، ففي أي دراسة بحثية، يمكن استخدام مجموعة متنوعة من التصميمات والمناهج البحثية للإجابة عن أسئلة البحث، ويساعد الإطار النظري في تزويد الباحث بأسباب اتخاذ أساليب وخيارات منهجية معينة. لذا، عند إعداد تقرير الدراسة، لا بد أن يساعد الإطار النظري القراء على تبرير لماذا كان التصميم المختار للدراسة منطقيًا للإجابة عن أسئلة البحث. كما ينبغي أن يكون واضحًا من الإطار النظري كيف ستؤدي الأساليب المختارة للدراسة إلى جمع البيانات التي ستعالج أسئلة البحث. إن مجرد ذكر اختيار منهجية معينة ليس مبررًا كافيًا. لذلك، يجب على الباحث أن يقدم حجة (مبنية على إطاره النظري) تبرر اختياراته التي أجراها في تصميم دراسته، وطرق تحليله، وما إلى ذلك.

في المقابل، إذا كان هناك عدم تطابق أو ضعف في الارتباط بين الإطار النظري والاختيارات المنهجية، فقد يتساءل المحكمون والقراء عن صحة الأدوات والتحليل، وكثيرًا ما يشعر المحكمون بالقلق عندما يشير تقرير بحثي إلى نظرية ما، دون أي إشارة إلى كيفية تأثير ذلك على القرارات التي تم اتخاذها لإجراء الدراسة. لذلك،

فغياب الروابط بين الإطار النظري والخيارات المنهجية أو التناقضات بينهما يضعف في نهاية المطاف مساهمة البحث.

اتضح مما سبق، أن الدراسة يجب أن تسترشد بفرضيات نابعة من مراجعة الأدب السابق، وتصميم منهجي مبرر. ومع وجود هذين المكونين في مكانها الصحيح، ستظهر نتائج الدراسة من البيانات التي تتناول أسئلة البحث، وتؤكد أو لا تؤكد تلك الفرضيات، مما يعني أنه ينبغي أيضًا أن يدعم الإطار النظري تبرير عرض النتائج وتفسيرها. حيث يوفر الإطار النظري سياقًا لمناقشة النتائج، كعلاقة حيوية بين النتائج التي تم التوصل إليها والمبرر الذي دعا إلى إجرائها، كما يمنح الإطار النظري الباحث آلية لشرح كيفية معالجة النتائج التي تجيب عن أسئلته البحثية، وتفسيرها، ومناقشتها. وفي المقابل، إذا لم يتم وضع الدراسة ضمن فرضيات مبررة بوضوح، فإن النتائج لا تركز على الغرض المقصود منها، ويمكن أن يميل الباحثون إلى تقديم ادعاءات مبالغ فيها.

على نطاق أوسع، يعد الإطار النظري الذي تم استخدامه بالفعل لإثبات صلة الدراسة بالميدان، مفتاحًا مهمًا لشرح المساهمة الحقيقية لنتائج الدراسة، حيث يجب أن تعيد مناقشة النتائج النظرية في الفرضيات التي نشأت من مراجعة الأدب السابق، مما يدل على أهمية النتائج التي قدمتها الدراسة الحالية في ضوء العمل السابق، وتقديم الإضافات للإطار النظري.

وفي الختام، نود التأكيد أنه كثيرًا ما يعلق المحكمون على البحوث بما يشير إلى أن الإطار النظري لم يتم تطويره بشكل كافٍ، أو أنه منفصل عن بقية أجزاء البحث (على سبيل المثال، "الإطار النظري والمنهجية ليسا متطابقين" و"الإطار النظري رُبط بشكل تعسفي بالبيانات")، حيث تضمنت تقارير محكمي البحوث المرفوضة مثل هذه التعليقات. نعتقد أن الإطار النظري جيد البناء يأتي من تفكير الباحث الدقيق حول الأسباب (التبرير) للفرضيات التي يقترحها للنتائج المحتملة لدراسته. ثم يتم استخدام إطار العمل لتوجيه اختيار الأدبيات التي تمت مراجعتها، ومنهجيات البحث المطبقة، وادعاءات الأهمية والمساهمة في هذا المجال. وهكذا يربط الإطار النظري بين الخلفية والمنهجية ونتائج الدراسة في سرد واحد متماسك.

عضو هيئة تحرير مجلة العلوم التربوية

جامعة الملك سعود

أ.د. خالد بن عبدالله المعثم